مجلة آفاق لعلم الاجتماع
ISSN: 1112-8259 EISSN: 2600-6855
المجلد 12 العدد 2 / ديسمبر 2022 ص ص 238- 261

وشم الزينة في منطقة بجاية

Ornamental tattoo in Bejaïa

د. قنفيسي حياة*
جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2022/10/8 تاريخ التقييم: 2022/10/09
تاريخ القبول: 2022/12/10

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الدلالة والمعاني التي تعطيها النساء للرموز الموشومة على أجسادها.

تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، وتمت الدراسة في آيت نوال، أقبو وبرباشة، أين أجرينا مقابلات مع النساء المسنات اللائي يحملن أوشاما متعددة.

خلصت الدراسة إلى أن العنصر النسوي تخلى عن ممارسة الوشم بشتى أنواعه بفعل العامل الديني الذي يمنع هذه الممارسة، إضافة إلى توفر مواد وتقنيات معاصرة المستعملة للزينة. ويعود التغير الذي مس الفخار والنسيج إلى الطابع الممارساتي الذي تعتمد عليه النساء لنقل مختلف العادات، ومن بينها الحرف التقليدية للفتيات دون شرح ما مسموح به والموانع التي يجب احترامها.

الكلمات المفتاحية: وشم، أشكال، رموز، تزيين، دلالة، معاني.

Abstract:

This study seeks to reveal the significance and meanings that women give to the symbols tattooed on their bodies.

The analytical descriptive approach was relied upon, and the study was carried out in Ait Nawal, Akbou and Barbacha, where we interviewed elderly women with multiple tattoos.

The study concluded that the female element abandoned the practice of tattooing of all kinds due to the religious factor that prevents this practice, in addition to the availability of contemporary materials and techniques used for decoration. The change that affected pottery and textiles is due to the practiced nature that women rely on to transmit various customs, including traditional crafts for girls, without explaining what is permitted and the prohibitions that must be respected.

Keywords: Tattoos, shapes, symbols, embellishement, signification, meanings.

*قنفيسي حياة، hayette.guenfissi@univ-bejaia.dz

1- مقدمة

يطرح هذا العمل، إشكالية رموز الوشم لدى بعض سكان الجزائر بصفة عامة وبعض القرى القبائلية في منطقة بجاية أين تمت الدراسة الميدانية بصفة خاصة. ويطرح على وجه الدقة قضية الرموز الغير لغوية، حيث يركز على الرسوم القديمة المستعملة في نفس الوقت وفي أغلب الأحيان في الوشم والحرف التقليدية كالنسيج والفخار منذ آلاف السنين. وانطلاقا من أن الإنسان تواصلي بالطبع وبأن السلوك التواصلي هو سلوك رمزي وبأن الرمز يعني المعنى والدلالة وبالتالي يعني بداية ظهور الثقافة والحضارة، فإن هذا العمل هو بحث ميداني ومنهجي عن المعنى المفقود والضائع لثقافة ورموز منطقة القبائل التي استعملت في الماضي ولازالت اليوم تعيش بيننا في شكل طقوس وممارسات مجهولة الهوية.

على غرار المجتمعات الأخرى، استعمل الوشم في شكله التقليدي في منطقة القبائل، لأداء مجموعة من الوظائف، تتمحور أساسا بين العلاج، التمييز، التزيين والغزل. إذ يحتوي وشم منطقة القبائل على مجموعة معتبرة من الرموز ذات أشكال هندسية مختلفة الأحجام والتركيبة والدلالة، بحيث كل قرية تملك طريقة خاصة في رسم وتركيب الرموز على البشرة. كما قد نالت ممارسة الوشم لدى القبائل، قسطا معتبرا من اهتمام الباحثين الذين قاموا بعدة دراسات نظرية وميدانية بحثا عن فهم هذه الممارسة، أهميتها ومختلف معاني الرموز المستخدمة فيها. فهناك من اعتبرها أول كتابة اخترعها الإنسان للتعبير عن نفسه، ومن عدها أول لباس ستر به الإنسان جسده. إلا أن جزءا كبيرا من الرموز المستعملة في الوشم يبقى مجهول الدلالة، بل تعتبر الأوشام مجرد أشكال وأيقونات تجذب الأنظار، بفعل تناظرها وتناسقها.

الفكرة الأخرى التي تستحق الذكر أيضا، هي شيوع الرموز واستخدامها وتوزيعها في جميع أنحاء العالم. وجودها ينقل رسائل متعددة قابلة للتفسير اجتماعيًا وثقافيًا. إذ هي رموز تُفسَّر بشكل مختلف من مجتمع إلى آخر، كما تبين الاختلافات العديدة وفي بعض الأحيان المقاربات في استعمال وتمثيلات الجسد عبر المجتمعات والثقافات. حيث وجود الوشم يُظهر أيضًا أن "الجسد هو الأداة الأولى والأكثر طبيعية للإنسان"(MAUSSE, 1936, p10). في حقيقة الأمر، قبل استخدام الإنسان، مختلف الأشياء والمواد المتوفرة في الطبيعة، استغل الإنسان جسده كمادة أولى، وبتحديد بشرته، للتعبير عن مشاعره، واختلافه، وانتمائه، ومعاناته وكذلك جماله. لعل هذا ما جعل «البشرة هي أول كتاب للإنسان، انعكاسه المباشر وشاهده"(DI FOLCO, 2004, p8). لقد ظهرت الدراسات السابقة بوضوح الاستخدام الجمالي للوشم لدى معظم الشعوب بما في ذلك منطقة القبائل، حيث استعمل الوشم كجزء من الزينة التقليدية.

جدير بالذكر، الإشارة إلى أن في الماضي، تم اعتماد الوشم لدى النساء القبائليات كأداة للزينة إلى جانب استعمال مواد أخرى، كالحرقوس والكحل والسواك، بهدف جذب انتباه الأزواج وإثارتهم. حيث اعتبر هذا البعد الإستيتيقي عاملا أساسيا في التمييز بين أساليب الزينة المستخدمة لدى نساء العالم ونساء منطقة القبائل، بفعل شيوع استعماله في شمال إفريقيا. وأغلب أوشام الزينة تحمل أسماء حسب مكان موضعها، في بعض الأحيان، تكون للتسميات علاقة وطيدة بمختلف قطع الحلي، بالرغم أنّ في الوقت الحالي "أصل هذه الأشكال ضائع في الماضي البعيد لكن لديها فضائل وأسماء تتعدد حسب الأماكن، الجنس والنوايا والوقت"(GOBERT et autres, 1956, p501).

يخوض هذا المقال في دراسة سوسيوأنثربولوجية لظاهرة وشم الزينة في منطقة القبائل ومدى تقارب الرموز المستعملة في الوشم بتلك الموضوعة كديكور على الأواني الفخارية ومختلف الأنسجة. معتمدين في ذلك على بحث ميداني قمنا به في منطقة بجاية ما بين 2004 وسنة 2006

حيث تمت الدراسة بالتحديد في آيت نوال، أقبو وبرباشة، أين أجرينا عددا معتبرا من المقابلات مع النساء المسنات اللائي يحملن أوشاما متعددة بهدف الكشف عن الدلالة والمعاني التي تعطيها النساء للرموز الموشومة على أجسادها، سيما تلك المستعملة لغرض الزينة، هذا ما يجعلنا نتساءل، ما هي دلالة رموز وشم الزينة في هيئته التقليدي لدى المرأة القبائلية؟ وما علاقة وشم الزينة برموز ديكور الفخار والنسيج؟. فبحكم أنّ تغيرات عديدة مست ممارسة الوشم في منطقة بجاية، حيث تراجع الوشم في شكله التقليدي، واستُبدل بالوشم المعاصر المخالف تماما للوشم التقليدي الذي كان شائعا في المنطقة وشمال إفريقيا من حيث الجنس الممارس له، التقنيات المستعملة والأشكال والرموز الموشومة، وكذا الألوان، إضافة للوظائف والدلالة وبروز تعديلات وتغيرات فيما يخص زخرفة تزيين الفخار والنسيج. همنا ينصب حول معرفة ما تحتويه هذه الأشكال والرسومات من رأسمال ثقافي رمزي لامادي يكوَن جزءا من هوية المجتمع القبائلي.

تسعى هذه الدراسة إلى فهم ممارسة وشم الزينة في ولاية بجاية بتسليط الضوء على دلالة الرموز ومعانيها انطلاقا من الوصف والتحليل، لهذا اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، كما استعنا أيضا بالمقاربة الرمزية لتأويل معاني الرموز الغامضة. استلزم بحثنا تبني جملة من التقنيات من بينها: الملاحظة التي كانت عونا كبيرا في إبراز نقاط التشابه والاختلاف بين مختلف الأشكال والرسومات، بالاستعانة على الدراسة الاستطلاعية التي مكنتنا من اختيار القرى الثلاثة التي أخذنا منها عينة بحثنا، وهذا الاختيار مستهدف بفعل ملاحظتنا تواجد بعض العناصر المتقاربة والمتنوعة بين هذه القرى سواء من حيث الأشكال والرسومات المستعملة أو من حيث الرسالة الرمزية المعبر عنها بالرغم من تباعد القرى الثلاث جغرافيا. إضافة للمقابلة التي تعد أفضل السبل للحصول على المعلومات عندما يتعلق موضوع البحث بما هو تقليدي حيث تكون العينة مكونة من الفئة المسنة لا تعرف الكتابة ولا القراءة، فيكون الكلام أجود السبل للحصول على المعلومات التي تزيد مثل هذه البحوث ثراء.

2- تعريف الوشم

يعتبر الوشم من بين التعابير الثقافية التي لا تقل أهمية وقيمة عن الثقافة المكتوبة من حيث التعبير عن نفسية الأفراد وجمالهم وكذا الرغبة في الاندماج من خلال التعامل مع المحيط الخارجي أفرادا وطبيعة، وهذا من صفات الإنسان الذي اعتبر الحيوان الوحيد الذي يملك إمكانية إنتاج أنماط ثقافية والتكيف معها، وكذا الرغبة في طبع التمييز بينه وبين بني جنسه باستعمال عدة وسائل منها حمل علامات على جسده كالوشم.

الوشم لغة **"**من فعل وشم وهو قريب من جذر وسم marquer (التعليم الطقوسي للحيوانات)، هو الوشم الذي تطبعه المرأة على الذراعين حيث يسمى "خطوط الغزالة" فيقال عن الأرض أنها وشمت عندما تنبت بعض العشب"(ابن منظور، ص933)، الاعتماد على هذا التعريف وحده غير كاف لتفسير وفهم معنى الوشم، فلابد من إضافة جملة من التعاريف الانثربولوجية التي تساعدنا على فهم الوشم ليس فقط كعملية تُبقي أثارا على البشرة، بل كأسلوب تعبير يختلف استعماله من مجتمع إلى أخر،على حد تعبير فرانس بورال "الوشم هو إدخال المواد الملونة بكميات صغيرة تحت البشرة، والوشم يتطور لدى الشعوب ذوي البشرة الفاتحة اللون" التي تسمح ببروز علامات الوشم عكس البشرة الداكنة"السمراء والسوداء "(BOREL, 1992, p138) التي لا يظهر عليها الوشم المرسوم، إلا آن هذا لا يعني أن هؤلاء الشعوب لا تمارس الوشم إنما تستعمل وشما من نوع أخر يسمى بـ La scarification وهو وشم عميق على شكل تضاريس قد تكون ملونة أو غير ملونة لكن يمكن لمسها، يمكن اعتبارها نقش على البشرة. صفة الثبات أو البقاء هي الميزة الرئيسية للوشم، إذ يعتبر رسما باقيا لا يمحى وهذه الصفة يتحصل عليها بفضل المادة

الملونة و كذا الطريقة التي تتم بها عملية الوشم المتمثلة في وخز أو جرح البشرة لإدخال المادة بمختلف الوسائل الحادة كالإبرة والشوك أو حتى السكين...حسب الوسائل المتوفرة.

تدلي عملية وخز وجرح البشرة بأن هناك سائل الدم الذي يخرج من الجروح، والدم له علاقة وطيدة بالقوى السحرية في المعتقدات الشعبية مثلما بينه الدكتور GOBERT حينما عرَف أن الوشم عملية للسحر الشعبي يستعمل لتسجيل الذكرى، حيث اعتُبر الدم الذي يسيل حاملا معه الروح والحياة من بين الظواهر التي أدهشت كثيرا الخيال البدائي الذي جعل من الدم الحي ناقل للقوى الروحانية و مبدءا لإتحاد المقدس السموي، كما يُعد من الهبات الأكثر قدوسية وشيوعا". (GOBERT, 1924, p58) هذا التعريف يؤكد لنا أن الوشم يتجاوز أسس العملية البسيطة كوضع علامة جسدية ليمس عالم المعتقدات السحرية للمجتمع، فهو نوع من الطقوس التي يقوم بها الأفراد وما يعطي لها طابع القدوسية هو سيلان الدم.هناك علماء أعطوا للوشم تعريفا أكثر خصوصية من عملية فردية، بل هو لغة وتعبير يستخدم كوسيلة اتصال بين الأفراد والمجتمعات، حيث اعتبر "الوشم أول كتابة للإنسان، وكتعبير رمزي هو الأكثر أقدمية وعالمية، بحيث يظهر أن له علاقة بتطور الإنسان ووعيه "الأنا" فهو يطبع حسب تعبير ليفي ستروس "الانتقال من حالة طبيعية إلى حالة ثقافية"(GROGNARD, 1992, p19). على هذا الأساس يكون الوشم نقلة من الحالة البسيطة التي يشترك فيها الإنسان مع باقي الكائنات(الحيوانات) إلى عالم الحضارة الذي يُبرز تفوق الإنسان على باقي المخلوقات بقدراته على خلق عدة أساليب للاتصال منها البسيطة ومنها المعقدة والرمزية التي ينتمي إليها الوشم. وهناك نوعين من الوشم: الوشم الراسخ الذي لا يمحى تبقى آثاره حتى بعد الوفاة مثلما بينته الجثث المحنطة، وهناك وشم ظرفي الذي يكون سطحي باستعمال الحناء والحرقوس وهو طبعا وشم مؤقت حيث يزول بعد مرور أيام.

3- تـاريـخ الـوشـم

تبدو عملية تحديد تاريخ ظهور الوشم سواء في العالم أو منطقة القبائل بشكل خاص، مسألة شائكة نوعا ما، هذا عائد لعدة أسباب منها: أن الوشم يوضع على البشرة والبشرة تتعفن وتختفي بعد الموت، وتواجده في العديد من القارات بأشكال وألوان مختلفة. إضافة لوجود آراء متضاربة حول تاريخ الوشم. بالرغم من هذا، يتفق أغلبية العلماء على أن الاهتمام بهذه القضية هو من مهام المختصين، هكذا تكون "دراسة الوشم عبر القرون وعبر العالم هي مسألة الأنثربولوجيا مادام أن هذه الصباغات الجسدية كانت حسب البلدان وحسب الأزمنة إثنية، زخرفية، دينية وقانونية." (KEIMER, 1948, p82) من هذا يبدو أنَّ الوشم خُلق من طرف الأفراد لعدة أغراض منها مواجهة مختلف المخاطر والمخاوف القادمة من الأفراد أو الطبيعة، إرساء نوع من النظام الاجتماعي، فرض التميز وللزينة كذلك. وإن كان اكتشافه يمتد عبر المجال الزمني وكذا الجغرافي ، يعرقل تحديد فترة بروزه، فإن انتشاره عبر قارات العالم يؤكد على الأهمية التي استحوذ عليها لدى الشعوب التي جعلت من الوشم أحد أساليب تعبيرها الثقافي الرمزي.

وجدير بالذكر أن الوشم البدائي حسب أغلبية الأنثربولوجيين ذو لون أحمر يشبه طلاء الحناء، وعملية الوشم تعد تضحية مادام أن وضعه يستلزم إسالة الدم. وذلك .بحكم وجود عدد كبير من المؤشرات تدل على استعمال الوشم الأحمر مند القدم، بدليل العثور على عدة براهين تبين استعمال الحبر الأحمر لدى بعض القبائل وكذا طلاء الحناء على جثث الأموات. لقد أثبتت نتائج الدراسات الأثرية ولزمن طويل أنَ " أقدم وشم محنط هو وشم جثة هاثور لمصر القديمة والذي يؤرخ بـ 2200 سنة قبل عيسى"(GROGNARD, 1992, p 19). فيما بعد، تم العثور على أدلة أخرى تبين أن تاريخ الوشم أقدم من عهد الفراعنة، حيث "عثر بتاريخ 19 سبتمبر 1991 في الحدود الإيطالية النمساوية على جثة مجمدة أُطلق عليها اسم Hebernatus وهي جثة رجل

يتراوح سنه بين 25 إلى 40 سنة مؤرخة بحوالي 5300 سنة. هذه الجثة تحمل أوشاما على الركبتين، ربلة الساق والكعب مستعملة لمعالجة مرض الروماتيزم الحاد. تعد هذه الأشكال براهين قاطعة للاستعمال العلاجي للوشم"(PIERRAT et GUILLON , 2000, p10).

كما بينت الأبحاث والدراسات الأثرية التي أجريت على مختلف الحضارات التي شهدها العالم عبر القرون، من خلال الحفريات أو الرسومات والنقوش الحجرية المكتشفة والمصنفة مواقع أثرية عالمية أنّ استعمال الرموز هو نقطة اشتراك الإنسانية. ليست هذه المواقع الأثرية وحدها الدليل القاطع على وجود الوشم بل هي مدعمة باكتشاف المغارات التي تلعب دور البيوت والأحياء في العهود القديمة المؤرخة بزمن ما قبل التاريخ حيث وجدت فيها "أدوات خاصة بالوشم وقارورات معبأة بمختلف المواد الملونة"(STEPHEN et CHAUVET, 1936, p109)هناك من الباحثين من أرجح أصول الوشم إلى عهد ما قبل التاريخ و آخرون أعادوه إلى عهود أبعد من ذالك وهذا ليس صدفة، إنما بوجود براهين حقيقية تدل على أن الوشم ذو أصول تمتد إلى العصر الحجري الحديث بعد إجراء بحث "في سيبيريا وجدت تماثيل تحمل أوشاما تقليدية ورسومات يغلب عليها اللون الأحمر الذي يدلنا على الوشم البدائي. كذالك في محطة نقادة على حافة نهر النيل وجدت تماثيل في وضعية الجلوس مملؤة بالأوشام، هذه التماثيل من الطين الأبيض تحمل رسومات بالأسود على اليدين والرجلين"(BERTHOLON,1904, p2/11).

وعبر التاريخ عرف الوشم عدة استعمالات فقد استعمل للعلاج للتمييز وكذا للتزيين وبقى يحمل رأسمال رمزي مادام هو سلوك طقوسي فتلك الرسومات والأشكال ليست عشوائية بل مقصودة تحمل معاني رمزية في القدم وتبين لنا أهمية المكانة التي يحتلها الجسد في كل ما يتعلق بالطقوس، إذ أنّ "الشيء الملحوظ هو الارتباط الوثيق بين ما هو طقوسي وما هو جسدي، حيث لا يوجد أي طقس لا يأخذ الجسد كركيزة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في فعله" (MAISONNEUVE, et BRUCHON-SCHWETZER, 1981, p 40).

4- وشم الزينة

يصنف وشم الزينة في المرتبة الأخيرة، تبعا للتصنيف المنطقي حيث ابتُدع الوشم بهدف العلاج و التميز ثم للتزين، فالتزين هو من الكماليات التي تأتي في الدرجة الثانية بعد الضروريات خصوصا لدى الشعوب البسيطة. حيث يؤكد أغلبية الباحثون أنّ "الوشم في الأول كان سلوكا علاجيا قبل أن يصبح فيما بعد حلي بفضل الاعتياد على ممارسته والحاجة للتقليد ورغبة الإتقان" (GOBERT et autres,1956, p572) فمن المحتمل جدا، أن يكون الوشم أول حلي حمله الإنسان على جسده مستعملا في ذالك بشرته كمادة أولية ثم فكر في استغلال العظام، المعادن كالفضة والذهب..."الوثائق المتحصل عليها من الحفريات تكشف لنا الإمكانيات الأولى الاصطناعية لتجميل الجسد كالصباغة، الشرط العميق والوشم"(BEN FOUGHAL, 1997, p21).

يبدو لنا من الضروري جدا أن نشير إلى أمر أخر، يميز وشم الزينة عن الأوشام الأخرى، ألا وهو كبر المساحة التي تستحوذ عليها أوشام الزينة الموضوعة دائما في الواجهة لتُرى، فهي تحيط بالعنق كالسلسلة على الجبهة واليدين والأصابع وحتى الكعبين أي نفس مواضع حمل قطع الحلي من الفضة و الذهب. كما قد يلعب الوشم دورا أخرا يتمثل في وظيفة تعديل وتحسين بعض نقائص الوجه حيث يعتبر "الوشم للنساء كحلي تملكه على البشرة تتلاعب به على المظاهر كتطويل الحاجبين"(BOREL, 1992 , p112).

قد يخون حلي الوشم حامله في المناسبات المؤلمة، حيث لا يمكن نزعه مثلما تنزع الحلي الأخرى وربما كان هذا سببا في التخلي عنه. إضافة لعامل الدين الذي نهى عن مثل هذه الممارسات، بالتالي انتقاله من العنصر النسوي إلى الذكور في أوساط المجتمعات المحلية لكن بأشكال ورسومات مختلفة عن تلك المستعملة في أوشام منطقتنا التقليدية أين الوشم كان يعتبر"لباس خفيف جذاب للعيون، ولا يشترى إلا مرة واحدة...فالأوشام الكبيرة الموضوعة على اليدين ما هي اليوم إلا زخارف جسدية هي عناصر التميز الجسمي وللجمال"(GOBERT, 1924, p63)، فبالوشم يتزين الفرد ويحقق تميزا عن الآخرين بتلك الرسومات الراسخة على بشرته، وكذا الألوان الجذابة لكن الوشم التقليدي المعروف في منطقتنا ذا لون واحد يميل للاخضرار أو أزرق خاتن. في بعض الأحيان لا يكتفي العنصر النسوي بالوشم، بل يضيف الصباغات كطلاء الحناء الذي يعطي لونا أحمرا من جهة، ويسمح برسم نفس أشكال الوشم الجميلة من النوع الهندسي، حيث تلعب الحناء دور بديل الوشم في المناطق الممتنعة عن ممارسة الوشم لأسباب دينية أو أخلاقية. لهذا يُعتبر الحناء وشما مناسباتي مؤقت حيث يزول بعد مرور بضعة أيام و استعمال الحناء مرتبط بالأفراح التي نجد فيها "أيدي وأرجل النساء مصبوغة بالحناء في العديد من المناسبات، مزخرفة برسومات جد متطورة التي تجذب الأنظار وتغري"(TAUZIN, 1988, p33)**.** وهذه الميزة تنفرد بها الحناء بينما الوشم قد يوضع للتعبير عن الحداد في الثقافات الأخرى. والشيء الذي يلفت الأنظار هو التشابه الكبير بين أشكال قطع الحلي الفضية وكذا الأوشام إلى حد تسمية هذه الأخيرة بأسماء مختلف قطع الحلي، تنطلق من الشفة السفلى وتصل إلى غاية الصدر وتحمل تسمية السلسلة "ثيزولاق" بالقبائلية.

5- وشم منطقة القبائل

لا يختلف وشم منطقة القبائل من حيث الوسائل والمواد المستعملة و طرق الوشم، بقدر ما يختلف في الرسومات والأشكال وكذا الجنس الممارس له والأماكن المسموح بوشمها، علما أنّه يوجد قبائل ضمن المجتمع القبائلي ترفض فكرة الوشم والبعض الأخر يعتبره شرفا كبيرا. غالبا ما يُعتبر الوشم ميزة قاطني الأرياف بينما" الفئات الأخرى تمتنع عنه في بعض الأحيان بسبب رأي الدين و في الأحيان الأخرى بسبب كره واحتقار العادات الشعبية"(GOBERT, 1924, p57). استعمالات الوشم في منطقة القبائل لها أعذار، إذ لا تتوشم المرأة لإرادتها وحدها، حيث تكون صغيرة السن، في بعض القرى شكل ولون بشرة الفتات هو الذي يقرر ذالك. معروف لدى القبائل، أنّ المرأة ذات البشرة البيضاء هي التي تحمل أوشاما والمثل الشعبي يبين ذالك "اتش ثاحيونت اثامغبونت تيشراط اغفزين ايرنونت ومعناه (كلي التين اليابس يا المغبونة ولا تطمعي فإن الأوشام تليق على من هو جميل). كما أن الوشم تقريبا في كل قرى منطقة القبائل، مخصص للنساء دون الرجال و إن توشم أحدهم تكون علامة قبيلة أوللعلاج حسب ملاحظات الباحثين الذين درسوا المجتمع القبائلي. يصنف الوشم القبائلي ضمن قائمة الطابع الهندسي التجريدي حيث يملك الوشم" خزان من الرموز الأولية المقاومة لنظريات التمثيل، الصورة الهندسية هي أصل كل ديكور موشوم"(KHATIBI, 1986 , p93)، هذه هي الميزة الأساسية لوشم منطقة القبائل ألا وهي الرسومات والأشكال الهندسية التي قد تحمل أسماءا لحيوانات أو نبات، إلا أن شكلها مكوَن من التركيب والتلاعب بين الأسطر المائلة والمتقاطعة وبعض النقاط، والمهم في ذالك تأصل وأقدمية هذا النوع في المنطقة. حيث يبدو أنَ أصل هذه الرموز تعود إلى مهد الإنسانية تتمثل في الأشكال ذات قاعدة قديمة تحوي رسومات هندسية بدائية المعروفة بـ : صليب، مربع، مثلث، مجسم، أسنان المنشار...والأسماء التي نعطيها لها تكون "الفراشة"، "طائر" "ذباب"، "ثعبان"، "عقرب"، "مشط" تقترح هذه التسميات أصل تمثيلي. و"هذا ما يتفق مع الفرضية المقبولة القائلة

أنَ الرجال الأولون، استعاروا صورا من الطبيعة المحيطة بهم من: الشمس، القمر والحيوانات ليُعبرون عن أفكارهم المجردة، كما ربطوا كسموقونيات كل نوع حيواني أو نباتي بأفكار حسنة أو سيئة، تعبر عن الحب أو الحقد، عن حقيقة أو الخطأ، الجمال والقبح. ويتفق المؤلفون على اعتبار هذه الدلائل (الأشكال) السحرية والدينية التي هدفها الحفاظ على النوع الإنساني وخصوبة الأرض و الإنسان... أنَها النوايا المشتركة لكل المجتمعات دون الكتابة ذات طابع زراعي، الموجودة منذ العصر الحجري الجديد"(MARTIN et autres, 2007, p70).

6- تحليل معطيات الميدان

تمكننا من جمع عدد معتبر من أوشام الزينة التي قمنا بتصنيفها في جداول حسب مواقع التموضع، ثم تحليلها معتمدين على الأجوبة المتحصل عليها خلال إجراء المقابلات مع النساء المسنات.

مواقع الوشم	نوع الوشم	القطعة التي يمثلها و الوظيفة التي يؤديها
الحاجبين	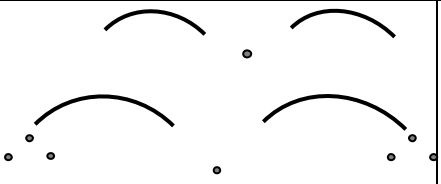	تطويل الحواجب و جعل لونها خاتن. هذا الوشم يعوض النظارات مثلما يبين شكله.
العنق	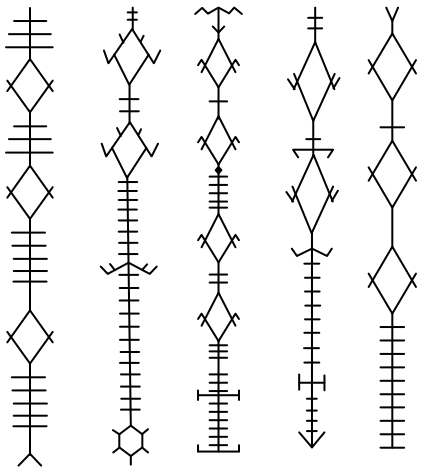	أشكال تستعمل بمثابة السلسلة في العنق وغالبا ما يكون هذا النوع مخصص للنساء ذوي العنق الرقيق والطويل. نجد من الأشكال ما هو معبأ برسومات ترمز للطبيعة كالقمر وما يرمز للمرأة أو حتى الوسائل المستعملة في النشاط الفلاحي.

6-1- تصنيف أوشام الزينة

مواقع الوشم	نوع الوشم	القطعة التي يمثلها
العنق والصدر	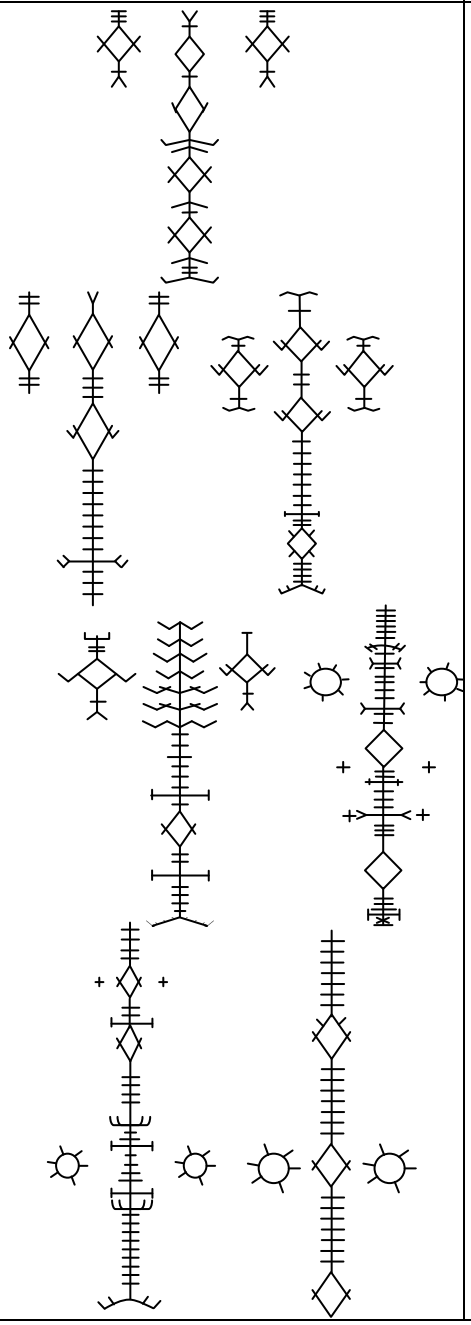	هذا النوع من الأوشام يعوض ما يسمى ثيزولاق أو السلاسل فهو يعوض الحلي الفضية قديما ويستعمل لدى النساء ذوي الرقبة العريضة والطويلة حيث الأوشام قد تصل إلى مفترق الثديين. يعوض السلسلة ونلمح نوعين مختلفين الأول تكون فيه الأشكال الجانبية في الأعلى أي على العنق والثاني تكون في المنتصف أي على الصدر

6-1-1- جدول خاص بأوشام الوجه والعنق

مواقع الوشم	نوع الوشم	القطعة التي يمثلها
قبضة اليد والذراع	(1) 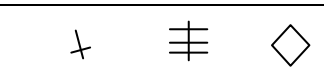 (2) 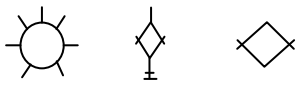	(1) مستعملة على الأصابع بمثابة خواتم لتجميل اليد. (2) أشكال معزولة موضوعة على ظهر اليد من أجل الجمال.
	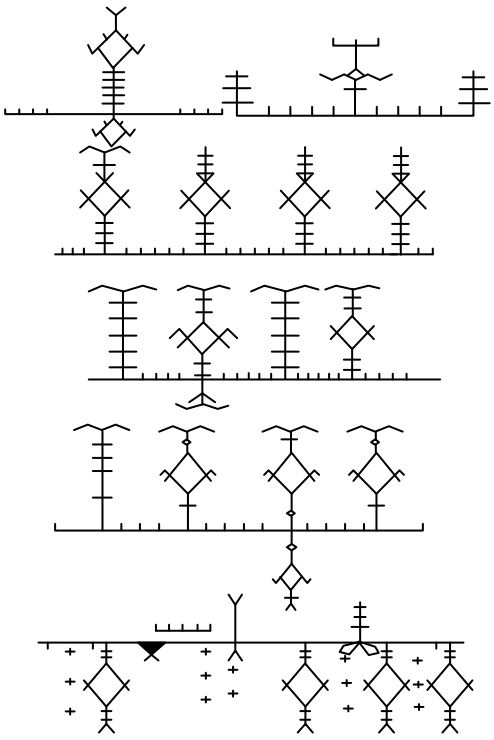	هذه المجموعة من الأوشام أغلبيتها تشكل حلقة محيطة بقبضة اليد وتسمى سوار أو مقياس أو حتى خلخال مثلما يبدو الشكل القبل الأخير في الجدول. وهناك كذالك أشكال غير مكتملة الحلقة حيث تظهر على الجهة الخارجية لقبضة اليد فقط هي تشبه ما يعرف حاليا باسم الغورميت.
	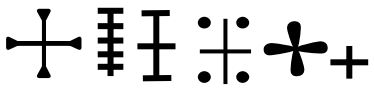	أشكال مستعملة بطريقة متناظرة تحيط بالذراع وترافق دائما وشم قبضة اليد حيث أنها لا تستعمل وحدها ويكون نفس الشكل مكرر عدة مرات.

6-1-2- جدول خاص بأوشام تزيين العنق و الصدر

6-1-3- جدول خاص بأوشام تزيين قبضة اليد والذراع

6-2- تحليل محتوى أوشام الزينة

بالرغم أن أغلب الباحثين اتفقوا على أن التواجد الأولي للوشم كان بدافع العلاج ثم بفعل المداومة أصبح متقن بالتالي بدأ استغلاله لتزيين وتجميل الجسد هكذا تحول الوشم من أداة للعلاج إلى حلي يرتديه الفرد على بشرته. من المحتمل جدا أن يكون الوشم أول حلي اكتشفه واستعمله الإنسان لتغيير مظهره الخارجي، وتواجد أدلة كالجثث المحنطة المصرية يطلعنا على زمن بداية اهتمام الإنسان بما يتعلق بالجمال الممتدة في أعماق التاريخ.

والشيء الملاحظ هو أنَ هذا النوع من الوشم المستعمل بهدف التزيين يستحوذ على قسط كبير من اهتمام وعناية النساء، فمثلما أخبرتنا العديد من المبحوثات سيما السيدة شريفة البالغة من العمر 82 سنة من منطقة أيت نوال، التي تقوم هي بوشم النساء، أنها تستعين بنساء أخريات لمراقبة اعوجاج الرسم الذي تضعه أولا بالرماد وإن صلح تبدأ بوخز البشرة وتفضل اليوم المشمس لتكون الرؤية واضحة. وأضافت أنَ أوشام العلاج لا توليها نفس الاهتمام لأن المرض هو الذي يفرض نوع ومكان الوشم عكس أوشام الزينة. فمن يريد أن يكون جميلا عليه أن يضحي وهذا ما يبينه المثل القبائلي "زواج سيذريمن، تيشراط سيذامن" ومعناه أن الزواج بالمال والوشم لا يمكن حمله دون سيلان الدم، هذا يبين أن أوشام الزينة هي الأكبر حجما إذا الأكثر تضحية .

أوشام الزينة كبيرة الحجم مقارنة بالأنواع الأخرى من الأوشام، سيما العلاجية والهواتية. توضع في مواقع مرئية لا تغطيها الثياب، كما قد تستعين النساء بألوان أخرى أكثر موافقة لما هو طبيعي في الوجه حيث تستعمل اللون البني الذي يميل للاحمرار لجعل الحواجب خاتنة اللون وأكثر غلظة وطولا واعتدالا كذالك، يسمى هذا الوشم بالقبائلية ثيمي أي الحواجب وهو موضوع بالحرقوس وإن كانت بعض المناطق تستعمل مثل هذا الوشم في المناسبات فقط مثلما هو الحال في منطقة برباشة وأيت نوال فإن هناك مناطق تستعمل الحرقوس كالوشم تماما أي بإجراء نفس العملية ويبقى الحرقوس على البشرة ولا يمحى أبدا أي أنه وشم بلون مخالف للون الشائع وهذا ما لاحظناه عند مسنات منطقة أقبو وإن أُضيفت ثلاثة نقاط على جوانب وشم الحواجب فالوشم يسمى بالنظرات وفعلا شكلها يشبه التسمية مثلما يبينه الرسم.

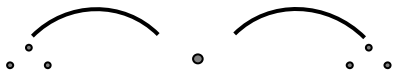

هذا النوع من الوشم يخص النساء المتزوجات حيث يضفي على نظرهن نوع من الجمال و جذب الانتباه "فحركة الحواجب ترمز لتقرب الإفصاح عن الحب." (CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p904) واستعمال الحرقوس كوشم باقي ليس ميزة كل القرى التي تسمح بالتوشم لكن هذا لا ينفي استعماله إلى جانب الحناء لليدين و الرجلين في المناسبات المفرحة، حيث يكون "الحرقوس وشم مؤقت ملون كالوشم ويبقى الفرق الأساسي أن الوشم يتم باستعمال الإبرة للرسم والحرقوس يرسم فوق البشرة بغصن خشب"(KHATIBI, 1986, p116) واكتشاف هذا النوع من الوشم الملون في أقبو يطلعنا على أن الوشم القديم كان أحمر اللون مثلما بينته الدراسات السابقة "العظام الإنسانية المصبوغة بالطين الأحمر تضيف برهانا آخرا للاهتمام الذي يوليه إنسان ما قبل التاريخ للون الأحمر الذي يصبغ به جسد أمواته." (Centre algérien de recherches anthropologiques, 1960, p30)

من هنا تتضح لنا فكرة أهمية اللون الأحمر لدى أفراد المجتمع القبائلي فإن تناقص وتراجع استعماله في الوشم فقد استحوذ على مكانة رئيسية وجد معتبرة في الحياة الجمالية خصوصا ما يتعلق بديكور مختلف منتجات الحرف التقليدية سيما النسيج لدى نساء منطقة برباشة، حيث أغلى وأجمل قطعها المنسوجة مصنوعة من الأحمرالغامق والأبيض فقط. بهذا الشأن يقول قاموس الرموز "يُعتبر اللون الأحمر كونيا، الرمز الأساسي لمبدأ الحياة، يمثل بفضل قوته وقدرته ولمعانه الأحمر، لون النار والدم، كما يملك اللون الأحمر نفس التعدد الرمزي الذي يملكه كلا من النار والدم. وذلك حسب لونه خاتن أو فاتح: ـ الأحمر الفاتح هو ساطع نابذ هو مذكر قوي يبعث للحركة؛ بينما الأحمر الخاتن هو ليلي أنثوي سري و في نفس الوقت منجذب يمثل غموض الحياة." (CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p831). واستعمال اللون الأحمر مع الأبيض قد يبدوا لنا من أجل التناسق والجمال بين اللونين فقط، إلا أن البحث في أهمية ووظيفة الألوان وكذا قيمتها الاجتماعية، بينت لنا أن هذا النوع من الازدواج اللوني له امتداد في التاريخ ولدى أكبر الحضارات التي عرفتها الإنسانية "فعند الحضارة اليونانية الحديث عن القماش الملون والمصبوغ هو الحديث عن اللون الأحمر. حسب أفلاطون اللون المفضل كهبة للآلهة هو الأبيض ويبقى الأحمر هو زينة الحروب و بالنسبة ل M . DUMEZIL فقد بيَّن أن الشعوب الهند أروبية تربط كل وضيفة من الوظائف الثلاثة بلون معين: الأبيض لوظيفة دينية، الأحمر لوظيفة حربية وألوان أخرى مميزة لما يتعلق بالوظيفة الاقتصادية والخصوبة"(GERSCHEL, 1966, p613).

كما يبدو أنّ هذا الاستعمال ليس ميزة هذه الشعوب فقط، بل حتى الشعوب السامية تقوم في المناسبات المرتبطة بالطابع الديني باستعمال اللون الأبيض كالختانة والزواج...إلخ. كما يستعمل اللون الأحمر في الحروب ليس القتالية بل حرب النساء لاكتساب الجمال ولعل هذا ما يفسر ميول النساء لارتداء الألبسة الحمراء وأيضا استعمال الحناء، الذي يصنف حاليا فيما يسمى " body painting" أي صباغة الجسد بالحناء والمعتبر أنه وشما زائلا بعد مرور بضعة أيام. إنّ استعماله شائع في المغرب منذ القدم، فهو مستعمل لصبغ الشعر وكوشم للنساء في المناسبات. استعمال الحناء له مزايا علاجية، له قوة الحماية (الوقاية) والنساء البربريات لهن أشكالا خاصة كالسيالة التي تلعب دور الحرز الواقي والضامن للصحة، السعادة ولتنمية القوى الإيجابية للزوجة"(p32 DI FOLCO,2004,)، والمقصود بالقوى الإيجابية كل ما يتعلق بالخصوبة والأمومة طبعا. لكن يبقى لون الوشم التقليدي يتراوح بين الأخضر والأزرق تبعا للمادة المستعملة. أفراد منطقة برباشة يتوشمون في فصل الربيع لتجنب نزيف الدم من جهة ولتوفر نبتة الفول وأوراق عنب الذئب المستعملة في الوشم وكلا النبتتين لهما أدوارا خاصة، فنبتة الفول تلون الوشم بالأخضر والنبتة الثانية تساعد على اندمال الجرح وشفائه. نفس الشيء بالنسبة لمنطقة أيث نوال بينما أقبو يستعملون الكحل الأزرق "النيلة" فتكون الأوشام زرقاء اللون، ومسألة لون الوشم لم تشغل الباحثين بل يكتفون بالقول أنها سواء زرقاء أو خضراء دون إظهار مصدرها. "فبالنسبة للأوروبيين أوشامنا خضراء اللون، لكن العرب عندما يتحدثون عنها، يقولون أنها زرقاء ويصفون البشرة الموشومة بالحقل المخضر"(HERBERT, 1931, p 66). وحتى في حديث العنصر النسوي القبائلي يقال (ثيشراط تزقزوين أم لحشيش) أي أنّ الوشم أزرق كالحشيش، علما أنّ الحشيش أخضر اللون. وإنّ رسوم الوشم المستعملة للتزيين مهما كان شكلها سواء أحادي أو مركب من ثلاثة أشكال جزئية، حيث تكون الأجزاء الجانبية نفسها شكلا وحجما وغالبا ما تكون موضوعة على العنق ويبقى الشكل المركزي وحده هو الممتد إلى الصدر. وفيما يخص استعمال الشكل الأحادي والمركب يتبع جسم المرأة، فإن كانت طويلة ورقيقة تستعمل شكل واحد في مركز العنق والصدر ويكون طويل يبلغ 30 سم مثلما تبينه الصورة الموالية:

وإن كانت ذات رقبة عريضة تستعمل الوشم المركب وقد يكون طويل أو متوسط الحجم تبعا لطول الرقبة وهي مختلفة اللون من منطقة لأخرى فمنطقة برباشة أوشامها خضراء اللون وأقبو زرقاء اللون. تبين الصورة التي تحمل وشم العنق الممتد للصدر بل حتى مفترق الثديين وهو وشم التزيين يدعى بثاغورفت (الغرفة) والشيء الملاحظ هو أن أوشام منطقة برباشة خلافا للمناطق الأخرى المدروسة يغلب عليها طابع الأسطر المتوازية التي تعبر الخط المركزي الطويل واستعمال المجسمات الصغيرة الحجم حيث لا تصل 1 سم مربع وكذا الأسطر عددها يذكرنا ببعض الأعداد ذات فال خير أو شؤم في المجتمع القبائلي سيما لدى العنصر النسوي المسن، مثلا نجد العدد 7 المتكرر بكثرة سواء في أوشام العنق أو الذقن وحتى في وشم قبضة اليد وهذا العدد إن كان محبذ استعماله في الأوشام فإن ذكره في حديث النساء غير محبذ وكأنه فال شؤم يجب ذكر وراءه مباشرة صيغة وقاية وهي مثلا: إذا سألت امرأة كم لديك من أولاد؟ عندي 7 ولا أقصدك بفال السبع.بالعبارة القبائلية يقال (أكمعنيغ سلفال نسبع)، العدد 7 له ارتباط بسبع سموات وسبع كواكب...ففي العادة الهندوسية نعطي لرسم الشمس سبع أشعة، ستة تمثل الاتجاهات في الفضاء والسابع في المركز وقوس قزح له ستة ألوان والسابع أبيض أي هو تركيبة الألوان الستة، العدد 7 هو رمز الشمولية لكن شمولية في حركة " (CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p861)، حيث نجد هذا العدد في كل شيء و له ارتباط وثيق بالرمزية القمرية التي يعتمد عليها العنصر النسوي في العد و القياس لكل ما يتعلق بحياته " مهم احترام المراحل القمرية التي تدوم كل واحدة سبعة أيام في كل الممارسات السحرية"(PAVESI, 1999, p99). وكذا غيرها من هنا نفهم مصدر قوة العدد سبعة المتمثل في القمر. إضافة للعدد خمسة المعروف حاليا بتسمية الخمسة المستعملة بكثرة لتصدي ومقابلة العين الحاسدة والتي يربطها الكثير بالدين الإسلامي بحجة أنها تمثل يد فاطمة بنت الرسول (ص)، لكن تواجدها عرفه التاريخ قبل ظهور الإسلام."حيث العدد 5 هو رمز اتحاد بين المبدأ السموي والمبدأ الأرضي هو رمز إنسان (يداه مبعدة) على هيئة صليب ب5 اسطر...هو رمز الكون والنظام والإتقان"(CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p254). واستعمال هذا العدد في أوشام الزينة أمرا عاديا، ما دام هدفها التجميل والجمال يجذب الأنظار المُعجبَة والحسودة بالتالي تواجدها يضمن الدفاع عن حاملها سواء تعلق الأمر بالدفاع عن الجمال أو الصحة. حيث الصحة هي التي تجعل الفرد جميلا؛ ومرتاح ونلتقي بمثل شعبي شهير في منطقة القبائل يدعم الفكرة (لخير إسرولوش، لهم إسكوعوش) ومعناه أن الخير والصحة يجعلان الفرد جميلا و سعيدا بينما المرض والهموم تجعله نحيفا وقبيح المنظر.

يسمى شكل المجسم الصغير الموجود على الصورة أيور أي القمر تواجده له معنيان: أولهما هو شائع في المجتمع القبائلي تشبيه المرأة الجميلة بالقمر المكتمل فيقال (تشبح أمزون ذا يور) معناه المرأة جميلة كالقمر" وثانيا المرأة القبائلية تستعين دائما بقوة وقدرة القمر في بعض الأعمال السحرية من أجل جذب انتباه القرين، وفي الواقع هذا الاعتقاد هو ارث مشترك عالميا حيث "القدامى واثقون أن القمر يمارس تأثيرا قاطعا على أفعال الناس وهذا التأثير قد يكون مفيدا أو

مضرا تبعا لحالة القمر في مرحلته النامية أو المتقلصة... في الحقيقة منذ عصر ما قبل التاريخ للإنسانية نستطيع كشف التواجد المعاش لرمزية قمرية، واشتراك القمر مع قرن الوفرة هي من بين الاشتراكات المهمة في العيار و المقاس أن يعرف القمر كمانح مكلف بتوزيع الخيرات وهذا ما يربطه بالخصوبة"(YVANOFF, 1998, p180).

وهذا ما يفسر لنا تسمية المجسم بالقرنيين الجانبين باسم القمر. والشيء الملاحظ هو أن تسمية القمر هي مستعملة بكثرة في كل أشكال و رسومات منتجات الحرف التقليدية وشكله يختلف قليلا من وشم لأخر رغم أن شكله القاعدي هو نفسه سواء في الوشم، الأواني الفخارية المصبوغة والقطع المنسوجة ألا وهو المجسم؛ فإن كان شكل القمر في النسيج مكون من مجسم وشكل على هيئة صليب في المركز مثلما توضحه الصورة:

تبين لنا أن شكل القمر المصبوغ على الأواني الفخارية شبيه جدا بشكل القمر الموضوع في الوشم مثلما توضحه الصورة أيضا. وحتى في الوشم نلتقي بعدة أشكال متقاربة في شكلها العام و مختلفة في التفاصيل و التي تسمى بالقمر دائما وهذه المجموعة من الرسومات تبين أن كل هذه الأشكال تسمى قمر في المناطق الثلاثة المدروسة.

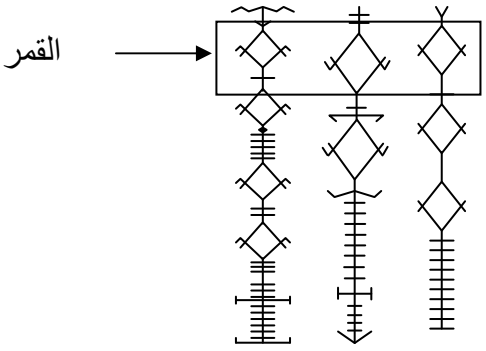

رمز القمر مستعمل بكثرة والغريب في الأمر، هو التعبير عنه بشكل مجسم هذا شيء عادي فيما يخص النسيج نظرا لحدود تقنية النسج التي تسمح فقط بتشكيل الرسومات الهندسية لكن الميدان أظهر أن الوشم غير خاضع لهذه الحتمية بدليل وجود رسومات دائرية في منطقة أقبو بل حتى في الحديث توصف الأشياء مربعة كالقمر أو الشمس "القمر يرمز للجمال في لونه الأبيض وشكله الدائري حيث الوجه الجميل هو الدائري و الأبيض، فيقال بالقبائلية (أوذم أمروبعان أم أيور) مملوء

كقرص القمر"(PLANTADE, 1988, p30). ويوجد بعض المناطق التي تسمي نفس الأشكال المجسمة في النسيج (بالمدور) التي تعني بالعربية الأشكال الدائرية. كما نلاحظ أيضا استعمال شكل المرآة في أوشام الزينة رغم أنّ شكلها يوحي إلى شكل الشمس لكن المبحوثات يرفضن تسمية الشمس و يقلن أن المرأة الجميلة وجهها صافي كالمرآة التي يمكن رؤية ذواتنا عبرها. لاحظنا أن الخطوط التي تشبه الأشعة غالبا ما يكون عددها سبعة وهذا ليس خاص بثقافتنا ومعتقداتنا فحسب "في العادة الهندوسية تعطي للشمس سبعة أشعة، العدد ستة يمثل اتجاهات الأشعة في الفضاء والسابع يمثل المركز"(CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p861).

كيفية تموضع و تنسيق الأشكال الجزئية المكوّنة للوشم الكلي ليست عشوائية ولا تتبع ذوق الواشمة مثلما يعتقد الكثير، بل هو نقل وتمرير تعابير فكرية معبأة بالمعتقدات الراسخة في أذهان أسلافنا القدامى والتي أثارها لزالت موجودة ليومنا هذا "المرآة ذات رمزية جد غنية في نظام المعرفة حيث تعكس الحقيقة ومحتوى القلب والضمير...الذكاء السموي المعكوس في المرآة يماثل رمزيا الشمس لهذا المرآة غالبا ما تكون رمزا شمسيا وقمريا ما دام القمر كالمرآة يعكس ضوء الشمس"(CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p636). هذا يوضح لنا تسمية المرآة لشكل يشبه كوكب الشمس الذي عبده أسلافنا القدامى، ومادام تعكس الحقيقة هذا يفسر لنا استعانة النساء بها للتعبير عن مشاعرها سيما تلك التي غير مسموح البوح بها مباشرة. وليس غريبا استعمال اسم المرآة لمثل هذا الشكل عندما نعلم القيمة الكبيرة التي يملكها كل من القمر والمرآة لدى العنصر النسوي القبائلي خصوصا ما يتعلق بالممارسات السحرية التي هدفها جعل المرأة محبوبة ومرغوبة من طرف الجنس الأخر وهذا ما بينته عدة دراسات التي اهتمت بهذا الموضوع من بينها دراسة نجمة بلانطاد في كتابها La guerre des femmes التي حاولت تحليل الممارسات السحرية للمرأة القبائلية، وكذا دراسة L. PAVESI التي تصف وتحلل ميول الممارسات السحرية لإستعمال ما هو أبيض كالقمر واستغلال قواه وهذا النوع يسمى "السحر الأبيض الذي يغطي كل العمليات الموجهة لفعل الخير، التنقية، طقوس موجهة لضمان الصحة، الاطمئنان، تقريب الأشخاص..."(PAVESI, 1999, p13). والأمر الأخير هو اهتمام النساء القبائليات سيما ما يتعلق بالقرين.

كما نجد شكل مقارب لشكل المرآة في منطقة برباشة هو شكل هندسي مختلف عن الذي إلتقيناه في منطقة أقبو وهو شكل دائري والمسمى حسب المبحوثة سواء المرآة أو ثابزيمت التي هي قطعة من الحلي الفضية المستعملة من طرف المرأة المتزوجة والمنجبة للذكر. وما لاحظناه هو استعمال تسمية المرآة في النسيج لكن ليس لشكل دائري مثلما هو الحال في الوشم إنما لشكل مربع كبير يتموقع في مركز القطعة المنسوجة مثلما تبينه الصورة الموالية والحاضرة في جهاز كل عروس تُقدم على الزواج، عليها أن تأخذ قطعة منسوج فيها هذا الشكل. وهذا الشكل في الوقت الحالي لم يعد يسمى بالمرآة إنما بتسمية غريبة جدا وهي لجامع لباري (جامع باريس) اقتباس من المناديل الأوروبية الكبيرة الحجم التي كان يحضرها المهاجرون للبلاد. ما يجب ذكره هو غياب تسمية الشكل العام فكلما طلبنا اسم شكل وشم العنق كله تبدأ النساء بتعداد أسماء الأشكال الجزئية المكونة للشكل العام باستثناء بعض النساء اللائي قدمنا لنا اسمين، أحدهما يدعى (بثاغورفت) أي الغرفة وهذا يخص رسم المركز في الوشم الثلاثي الأشكال مثلما يبينه الرسم الأتي والذي نلتقي به في الأواني الفخارية مثلما تبينه الصورة الموالية:

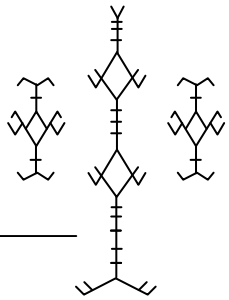

هذا الشكل يسمى بثافروخث التي جمعها ثيفراخ أي أنثى الفرخ والتي يربطها المجتمع القبائلي بالحجلة.

الشكل المركزي يسمى بثاغورفت.

ثاغورفت

تسمية الغرفة الغريبة نوعا ما عن المجتمع القبائلي التقليدي لأنها غير موجودة كبناية، لكن محتمل جدا أنها بديل لتسمية (ثاعريشت) وهي بمثابة غرفة تخزين موجودة في كل بيت قبائلي. وعن سؤلنا ماذا تعني تسمية ثيفراخ؟ رغم أن شكلها ليس له علاقة بالاسم، أجابتنا (تيشراط نشباحة أو شباحة أولاش ويفن ثاسكورث) أي الأوشام تستعمل للجمال وفي الجمال لا يوجد أفضل من الحجلة. من هنا فهمنا أن اسم الفرخ يقصد به الحجلة. كما تستعمل الطيور أو حتى أرجلها فقط في بعض الأحيان في كل الزخرفات و الديكورات التي تضعها في منتجات الحرف التقليدية من نسيج وفخار وكذالك الأوشام، وهذا سواء كان صورة أو تسمية، وفي معتقد الأفراد أن الطائر هو رمز لنوع من الحرية لكن كثير ما نجد استعمال أسماء تذكرنا بعضو من أعضاء جسم الطير كصدر الحجلة المستعمل بكثرة في النسيج الخاص بمنطقة برباشة وفخار منطقة أيت نوال والصور تدعم ذالك

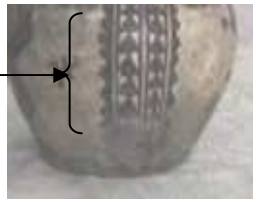

صدر الحجلة

عين الحجلة

كما قد نلتق بعضو أخر من جسم الحجلة مثلما هو الحال في فخار أيت نوال والذي يتمثل في عين الحجلة حسب المبحوثة. فكثيرا ما نجد المرأة الجميلة والخفيفة الروح تُشبّه بالحجلة الصعبة

الاصطياد حيث تعتبر "الحجلة في الشعر والعادات الشعبية القبائلية رمز الرشاقة والجمال الأنثوي"(CHEVALIER et GHEERBANT, 1984, p740)، فقد يكون اسم الحجلة غير منطوق به أو مستبدل باسم آخر مثلما هو الحال في أوشام برباشة تدعى ثيفراخ (أنثى الفرخ) ومعناه العذرية وصغر السن وكذا الجمال فكثيرا ما تُنعت وتوصف المرأة بهذه التسمية، ومثل هذه الأساليب هي أدوات تعبير الثقافة الشعبية القبائلية فقد يكون "وشم الطائر أو أرجله هو العصفور المرسول وهو موضوع جد شائع في شعر الحب (الغزل) القبائلي" HERBER, 1925,) p284)

إن كان النسر أو الباز كما يسمى بالقبائلية هو رمز الشجاعة والرجولة فإن الحجلة رمز الجمال و الأنوثة، هذا راسخ في مختلف التعابير الثقافية الفولكلورية من بينها الرقص القبائلي أين المرأة تقلد الحجلة و الرجل يقلد النسر في حركته طبعا.

بينما يدعى الوشم الأحادي الشكل للعنق بتسمية مرتبطة بأساس المنزل القبائلي التي يقام عليه سقف المنزل، يسمى بـ أجقو ajgu أي ما يعرف بالعارضة أو الدعامة المحتمل جدا أنها تعني الخط المستقيم التي توضع عليه الأشكال الجزئية وهذا ما فهمناه من حديث المبحوثة عندما أجابتنا قائلة "نسميه أجقو لأنه يحمل أيورن وثوشار" ومن هذا خلصنا إلى نتيجة هي غياب اسم للشكل الكلي باستثناء اسم هو "تيشراط أوعنقيق" والتي تعني بكل بساطة وشم العنق أي ربط التسمية بالعملية و موقع العملية.

يبدو أنّ كل وشم يضيف عناصر جديدة للقائمة، أو على الأقل يعطينا تركيبة جديدة لنفس العناصر، فقد نجد نفس الأشكال الجزئية موضوعة ومرتبة بطريقة مختلفة من امرأة لأخرى حيث تعطي أولوية لشكل ما فتضعه في مقدمة الوشم، كما لاحظنا في منطقة أقبو نوع وشم مركب من ثلاثة أجزاء وموضوع على العنق بطريقة مختلفة، حيث الشكلين الجانبيين موضوعين ليس على العنق مثلما هو الحال في كل الأوشام الأخرى إنما على الصدر وتقريبا فوق الثديين والمجموعة الموالية من الرسومات ستوضح الإختلاف في طريقة تموضع أوشام الزينة على العنق والصدر حسب المناطق الثلاثة:

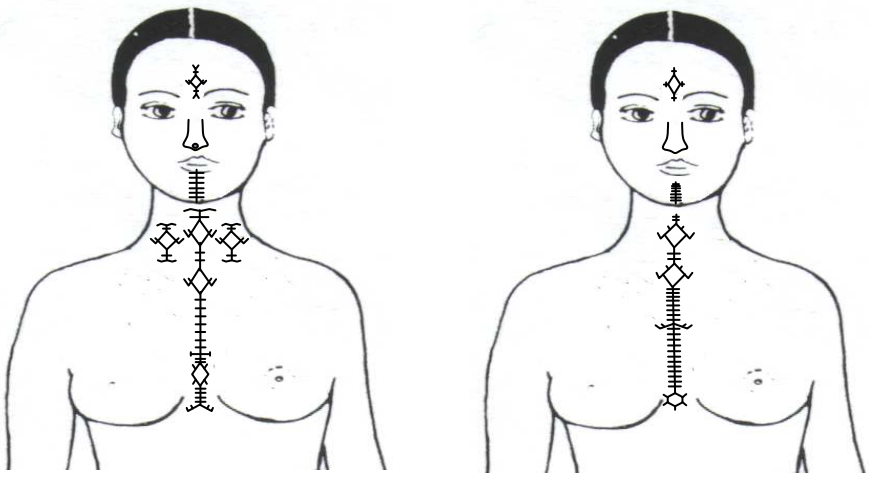

برباشة

برباشة

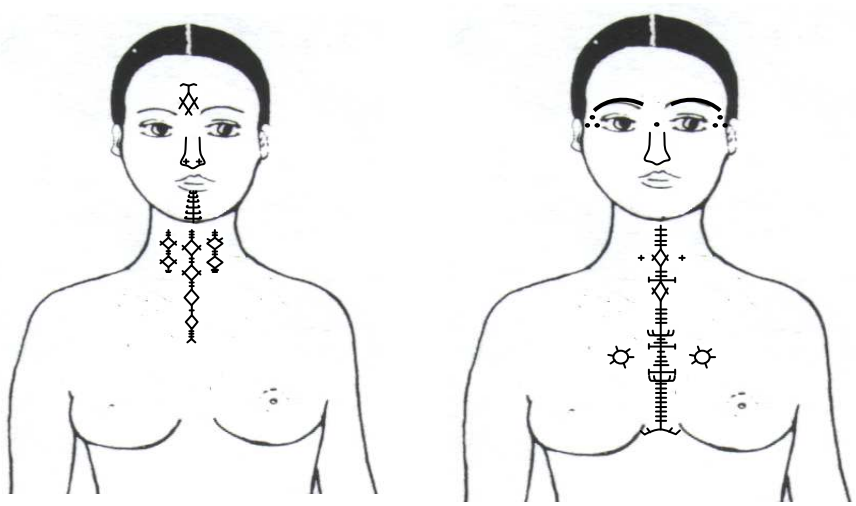

أقبو أيت نوال

التقينا كذالك بوشم يحوي رسم فريد من نوعه حيث يتمثل في رسم شجرة النخلة التي لا تنمو في منطقة القبائل لكنها مستعملة في الوشم والنسيج أيضا مثلما تبينه الصورة والوشم.

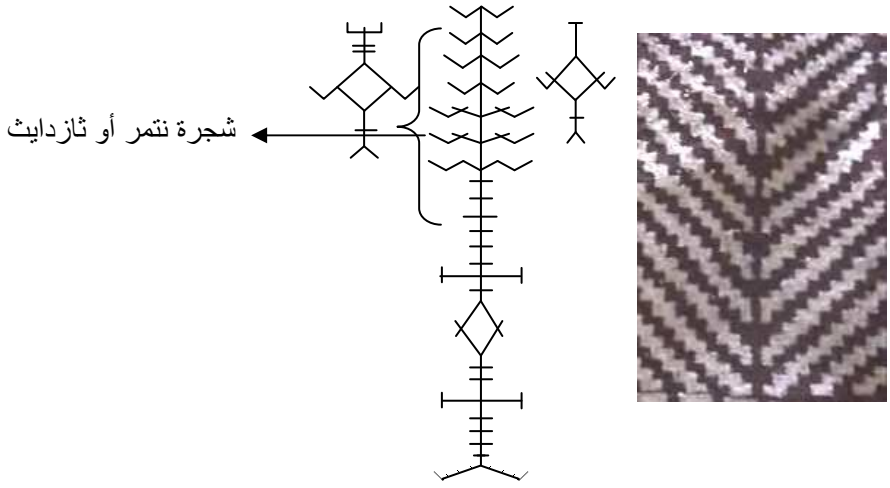

رغم إقرار البعض بغياب هذا النوع من الشكل في وشم الجزائر وتأكيد على تواجده لدى كل مناطق المطلة على الحوض الأبيض المتوسط حيث نجد "شكل النخلة (الجريدة) هو الشكل الرئيسي في أوشام تونس، وأقدمية هذا الرمز تظهر عند جثث الأفارقة القدم الموجودين في قبر سيتي الأول حيث نجد أغصان النخل مطرزة على لباسهم، كما هو منقوش على نقود الساحل الشرقي للبربر"(BERTHOLON et CHANTRE, 1921, p480). فهذا الأمر يبين أن

منطقة القبائل جزءا من هذه البلدان المتوسطية، فليس غريبا أن نلتقي بشكل النخل في منتجاتها الحرفية ووشمها، وهذا يبين ويبرهن على الأصل المشترك للبربر سواء القاطنين في السواحل أو الصحراء، هذا ما بينته الباحثة مليكة حاشيد في أغلب دراستها "في الصباغة الجدارية للمنازل القبائلية، نجد النخلة أكبر صديق لرجل الصحراء وعند القبائل مثلما هو الحال عند الطوارق النخلة هي بيت الملائكة"(HACHID,1992, p204)، والشجرة هي رمز الاستقرار لدى الشعوب المعتمدة على الزراعة مثلما هو الحال في المجتمع القبائلي التقليدي.

لفهم معنى ودلالة الأوشام لابد من تفكيكها وتجزئتها إلى عناصرها البسيطة والتي يكون ترتيبها وتنظيمها معنى عكس ما يتطلبه ديكور الفخار الذي "الأشكال الصغيرة والبسيطة ليس لها معنى بل وحدها الأشكال المعقدة لها اسم وتواجد واقعي"(BALFET, 1955, p 318).

وفيما يخص أوشام التزيين المستعملة على قبضة اليد جمعنا عدة أشكال متقاربة ومختلفة فيما بينها من حيث ترتيب العناصر الجزئية المكونة للشكل الكلي المسمى سواء أمقياس أو أخلخال حسب المناطق وهذا النوع من الأوشام يقارب جدا أشكال قطع الحلي الفضية حيث تكون الأوشام على صورة حلقة فهي تدعى مقياس وهي فعلا تشبهه مثلما توضحه الصورة الموالية :

الشكل الجانبي للوشم الشكل المركزي على ظهر اليد الشكل المركزي الداخلي

عموما أوشام تزيين قبضة اليد لا تتعدى أربع أشكال ويكون الشكل المركزي الموضوع على ظهر القبضة أكثر زركشة وفي بعض الأحيان أكبر حجما قليلا من الآخرين كما قد يضاف إليه شكل يُوضع على ظهر اليد ويكون متصل به أي غير مفصول وعلى كلا الجانبين نلتقي بنفس الشكلين قد يكونان تماما في الشكل والحجم كالشكل المركزي كما نصادف أنواع مختلفة عنه.

بينما شكل الجهة الداخلية للقبضة يكون بسيطا وهو في غالب الأحيان نفسه لدى كل المبحوثات وهذا يعود لسبب واحد هو أنه يوضع كمغلق fermoir لمقياس أو خلخال والتسمية بالقبائلية تؤكد ذالك وهي أخلال وأقرب شكل يمثل المغلق إلتقينا به في منطقة أقبو أين وجدنا أصغر التفاصيل المكونة للخلخال التقليدي والرسم الموالي يبين ذالك:
كلا الشكلين يمثلان أجزاء المغلق

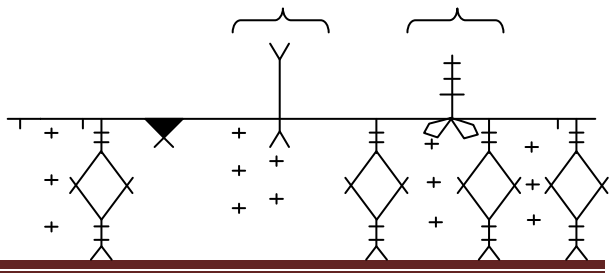

وكل هذه الأشكال تكون موصولة ببعضها البعض بواسطة حلقة مسننة ببعض الأسطر القصيرة والتي لا تتعدى بعض المليمترات التي تضيف للوشم جمالا وامتدادا والتي تدعى بثوشار في بعض المناطق أي الأظافر باللغة العربية لكن هذه التسمية (ثوشار) تعني بالقبائلية المفاتيح المستعملة عموما لحل وغلق الأبواب وربما لها نفس المعنى في الأوشام حيث تكون الوساطة بين الإنسان وأبواب العالم فوق الطبيعي. وفي الغالب نجد نفس الشكل موضوع على اليدين ولعل هذا ما يبين أن وظيفتها التزيين وهذه الصورة تبين ذالك

أوشام قبضة اليد للجهة الخارجية أوشام قبضة اليد للجهة الداخلية

وهذا النوع الجميل من الوشم لا تكتفي به النساء بل تضيف بعض الأشكال البسيطة و الصغيرة الحجم التي قد تكون مجرد علامة صليب بمختلف أشكالها أو مشط موزعة على الذراع في الجهة الداخلية والخارجية والتي تضفي الوشم جمالا والتي تسميها المبحوثات (arcam أرشام) مثلما تبينه مجموعة الصور الموالية

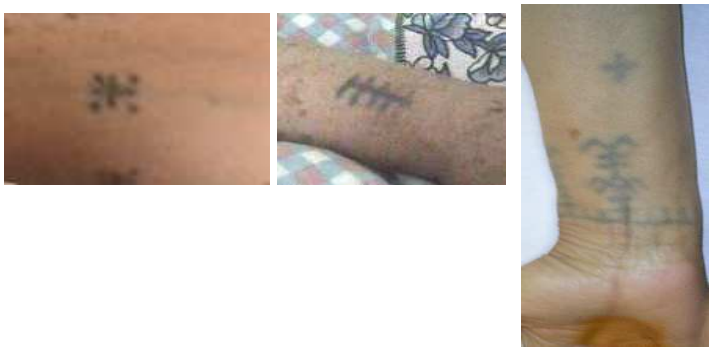

غالبا ما يكون عدد الأشكال المعزولة المتناثرة على الذراع هو ثلاثة و هذا شيء طبيعي إذا علمنا أن النساء يربطن بين ما يتعلق بالجمال وما يتعلق بالسحر والعلاج في كل ممارساتهن الطقوسية. والشيء الملاحظ هو استعمال في هذا النوع من الوشم شكل الصليب بمختلف أنواعه البسيط والمركب مثل swastika أو صليب مالطا مثلما تبينه الصور الموالية:

هذا الشكل الذي يدعى بالنجوم أو الذباب في منطقة القبائل، مستعمل في النسيج لكن بتسمية ثيشراط أي الوشم وهذه الصورة تدعم ذالك:

كما تبين لنا أن هناك استعارة الأشكال والرسومات بين الوشم والنسيج وكذا الفخار وتسمية لعلامة الصليب الموجودة على النسيج باسم ثيشراط هو دليل على أن الشكل مقتبس أو منقول من الوشم إلى النسيج. شيوع استعمال هذا الشكل دفع بالباحثين غلى وصف المجتمع القبائلي أنه مجتمع مسيحي بدليل تواجد علامة الصليب على أوشام أفراده وكذالك مختلف منتجاته الحرفية التي ليس هدفها التزيين أو الديكور إنما إظهار الاتجاه الديني المسيحي وهذا فخ وقع فيه العديد لأن الدراسات أثبتت أقدمية هذا الشكل وتواجده قبل ظهور المسيحية في جل مناطق العالم. "ندرك اليوم أن علامة الصليب علامة صوفية (سحرية) عند العديد من الشعوب كما نجدها على الفخار المؤرخ بالعصر الحجري ،نجد آلهة الأساطير القديمة يحملون الصليب في اليد كما نجد مقبض أسلحة الطوارق كذالك على شكل الصليب والنقوشات الحجرية الموجودة قبل المسيحية"(BAZIN, 1890, p574).

إلتقينا كذلك بنوع آخر من أوشام التزيين المستعملة في قبضة اليد، لكنها مقتصرة على الجهة الخارجية الظاهرة وهذا النوع لا يسمى أمقياس لأنه غير مكتمل الحلقة بل يدعى بالغورميت gourmette مثلما تبينه الأشكال الموالية:

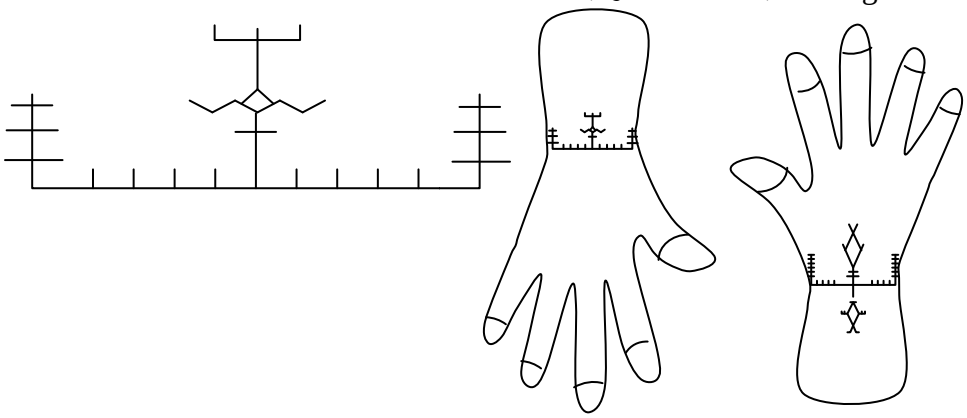

هذا النوع يحمل شكلا مركزيا واحدا فقط، بينما تكون الأشكال الجانبية كفاصل لإنهاء أو لرسم حدود نهاية المكان الموشوم، ومثلما يوضحه الرسم تكون في الغالب متشابهة حيث تحمل سطرين عموديين مع تقاطعات صغيرة والاختلاف يكون في عدد التقاطعات وهذا تبعا لحجم يد المتوشمة حسب قول إحداهن. كما نجد أوشاما معزولة صغيرة الحجم مستعملة على الأصابع بمثابة خواتم مثلما يبينه الرسم الموالي:

هذا النوع من الأوشام ليس لديها تسمية من غير عبارة (قمكان نتخوثام) أي في مكان الخواتم المستعملة للتزيين عوضا من الخواتم الفضية التي لها قيمة اجتماعية لدى العنصر النسوي التقليدي.

كما إلتقينا عند رجل يبلغ من العمر 94 سنة من منطقة أقبو، مجموعة من الأوشام التقليدية التي يمكن تصنيفها ضمن قائمة أوشام التزيين من حيث شكلها ومكان وضعها مثلما تبينه هذه المجموعة من الصور:

مثلما تبينه الصور يوجد ما يشبه أوشام العنصر النسوي كالخواتم الموضوعة على الأصابع والتي يفضلها الرجل عن الخواتم الفضية مثلما أخبرنا السيد "ستبقى في أصابعي وتدفن معي هي فعلا ملكي".

منها ما يشبه فعلا الخواتم مثلما تبينه الصورة الأولى والتي أسماها لنا السيد بـ (ثيخوثام نطابلة)أي خواتم الطاولة، وهذه التسمية مستعملة عند النساء تعبيرا عن الشكل المربع الذي تحمله حلقة الخاتم. ومنها ما هو بسيط ويشبه علامة زائد مثلما تبينه الصورة الثانية.

وأيضا شكل السوار على قبضة اليد المكون من أسنان الذئب أو المنشار مثلما يدعى في منطقة القبائل هذا الشكل الذي لم نلتق به في الوشم التقليدي الخاص بالنساء لكن هو مستعمل في النسيج والفخار بكثرة وهذه الصور تؤكد ذالك رغم التسمية المختلفة حيث يدعى ب ـ(أعويجن) أي الأسطر المعوجة أو تسمية بول الثور التي تبدو غريبة نوعا ما لكن ذات علاقة وطيدة بالخصوبة.

ـ الخاتمة

من الصعب جدا تعداد الأشكال والرسومات المستعملة في وشم منطقة القبائل دون الأخذ بعين الاعتبار ديكور الأواني الفخارية والقطع المنسوجة، وكذا تحديد أو محاولة إيجاد العلاقة بين أساميها والأشكال. ونظرا لتأثير عامل الاقتصاد والسياحة فإن الديكور يتغير يوم بعد يوم بالتالي تتراكم الأشكال الجديدة الدخيلة على تراثنا وتتراجع الأشكال التقليدية التي قطعت قرون عديدة.

تخلى العنصر النسوي عن ممارسة الوشم بشتى أنواعه بفعل العامل الديني الذي يمنع هذه الممارسة. إضافة إلى توفر مواد وتقنيات معاصرة المستعملة للزينة. وبالنسبة للتغير الذي مس

الفخار والنسيج هذا يعود من جهة للطابع الممارساتي الذي تعتمد عليه النساء لنقل مختلف العادات ومن بينها الحرف التقليدية للفتيات دون شرح ما مسموح به والموانع التي يجب احترامها، هذا أحد أسباب فقدان جزء معتبر من الرأسمال الثقافي الرمزي القبائلي ولعل الطابع السري للعلاقة التي تربطها النساء مع العالم المجهول (عالم ما فوق الطبيعة) ساهم في تعقيد دلالة الرسومات والأشكال التي تحولت لرموز حاملة في لبها رسالة خفية.

من جهة أخرى أنّ أغلب الدراسات القديمة التي اهتمت بالرموز عامة وبممارسة الوشم بوجه الخصوص، تمت من طرف الذكور هذا في اعتقادنا كان عائقا كبيرا، نظرا لاصطدام الباحثون الرجال بتكتم وخجل العنصر النسوي التقليدي للتعبير وكشف أسرار الحياة الخاصة سيما تلك المتعلقة به. كما أن مجموعة أخرى اكتفت بتعداد وتصنيف هذه الأشكال والرسومات في إطار رمزية مجهولة الدلالة ضاعت وتشتت عبر التاريخ. والتأكيد على أنّ الشيء المتبقي منها، يبرز فقط الخصائص الديكورية لمنطقة القبائل، معتقدين أنّ فعلا هذه الرموز ليس لها وضيفة غير الديكور، هذا نظرا لجهلهم أن تلك الرموز كانت لوقت قريب وسيلة اتصال نسوي يسمح ببناء فضاء ثقافي خاص به يعبر من خلاله عما يرغب فيه من أحزان وآمال بمختلف الأشكال والرسومات وأماكن موضعها سواء كانت على البشرة إن تعلق الأمر بالوشم أو على مختلف المنتجات الحرفية من أنسجة وأواني فخارية المصنوعة من طرفه. يُعبر كذلك عبر هذه الرموز عن أشياء أخرى لها علاقة وطيدة بالمعتقدات القديمة الباقية الآثار إلى يومنا هذا في المجتمع القبائلي.

ـ قائمة المراجع

- MAUSSE, Marcel. (1936). Les techniques du corps. In Journal de Psychologie, XXXII, NE, 3-4, 15 mars - 15 avril.
- Di FOLOCO, Philippe. (2004). *Peau*, Paris: éd fiway publishing.
- GOBERT et Autres. (1956). Remarques sur les tatouages nord-africains, revue africaine, Alger, pp505-519
- ابن منظور.(دون سنة). لسان العرب المحيط، المجلد الثالث من القاف إلى الياء، بيروت، لبنان: دار لسان العرب.
- BOREL, France. (1992). *Le vêtement incarné (les métamorphoses du corps.)*, France: Ed calmann levy.
- GOBERT, Ernest. (1924). Notes sur les tatouages des indigènes tunisiens, Anthropologie, Tome 34, Paris: éd Masson , pp57-90.
- GOBERT, Ernest. (1911). Notes sur les tatouages indigènes de la région de Gafsa , Revue tunisienne, Tunis, numéro 85, société Anonyme de l'imprimerie rapide, pp32-41.
- GROGNARD, Catherine. (1992).*Tatouage (tags a l'ame)*, France: éd anthems aubin.
- KEIMER, Louis. (1948). *Les momies tatouées (remarque sur le tatouage dans l'Égypte ancienne)*, Le Caire: éd I.F.A.O .
- PIERRAT, Jérôme et GUILLON, Eric.(2000). *Les hommes illustrés (le tatouage des origines à nos jours)*, Paris: éd larivière.

- STEPHEN et CHAUVET. (1936). *La médecine chez les peuples primitifs (préhistorique et contemporains)*, Paris: librairie maloinr.
- BERTHOLON. (1904). Origines néolithique et mycéniennes des tatouages des indigènes du nord de l'Afrique, Archives d'anthropologie criminelle et de criminologie, N°132 , pp2-11
- MAISONNEUVE, Jean et BRUCHON-SCHWETZER, Marilou. (1981). *Modèles du corps Et psychologie esthétique*, Paris: éd PUF.
- BEN FOUGHAL ,Tatiana. (1997). *Bijoux et bijoutiers de Laures (algerie tradition et innovation)*, Paris: Ed C N R S.
- TAUZIN, Aline.(998). *Le henné art des femmes de Mauritanie*, UNESCO, Ibis Presse.
- KHATIBI, Abdelkebir. (1986). *La blessure du nom propre*, Paris: éd Denoël.
- MARTIN, Stéphane et autres. (2007). *Ideqqi art de femmes berbères*, Milan: édition 5continents.
- CHEVALIER, Jean et GHEERBANT, Alain. (1984). *Dictionnaire des symboles (mythes rêves coutumes gestes formes figures couleurs nombres)*, Paris: édition bouquins.
- Centre algérien de recherches anthropologiques, préhistoriques et ethnographiques. (1960). Libyca, tome 8.
- GERSCHEL , Lucien. (1966). Couleur et teinture chez divers peuples indo européens ? Annales (économies sociétés civilisation), mai-juin: éd Armand colin, pp608-631.
- HERBERT, Jean. (1931). les tatouages Nord-Africains sont-ils bleus ou vert ?, revue africaine, volume 72, Alger: A. Jourdan Libraire-éditeur, pp65-77.
- PAVESI, L. (1999). *Rituels de magie blanche*, Paris: éd de vecchi S.A.
- YVANOFF, Xavier. (1998). *Mythes sur l'origine de l'homme*, Paris: éd errance.
- PLANTADE, Nedjma. (1988). *La guerre des femmes (magie et amour en Algérie)*, Paris: éd la boite a document.

- GERSCHEL , Lucien. (1966). Couleur et teinture chez divers peuples indo européens ? Annales (économies sociétés civilisation), mai-juin: éd Armand colin, pp608-631.

- HERBER, J. (1925). Tatouages des prisonniers marocains (arabes, arabisés et berbères) , Hesperis , tome v, pp277-299.

- BERTHOLON, L et CHANTRE, E . (1921). Recherches anthropologique dans la berberie orientale (tripolitaine. Tunisie. Algérie), Hesperis tome 1, 1ere édition larose, pp 477- 565.

- HACHID, Malika. (1992). *El hadjra el-maktouba(Les pierres écrites de l'atlas saharien),* tome 2 , Alger: éd ENAG.

- BALFET, Hélène. (1955). La poterie d'ait smail du Djurdjura (éléments d étude esthétique), Revue africaine , Société historique algérienne ,Tome 99 , pp 289-340.

- BAZIN. (1890). Etude sur le Tatouage dans la régence de Tunis, l'anthropologie, tome 1, Paris, édition G.Masson, pp 566-579.